المستقبل AL-MUSTAQBAL

وباء المسلسلات على أنواعها يغزو الشاشات

وضاح شرارة

في ابتداء الجزء الثاني من مسلسل «باب الحارة»، السوري «التراثي» على ما يسميه بعضهم أو «الأصيل» على قول مخرجه بسام الملا، عمد كتّاب ومعلقون متفرقون الى مناقشة حلقات الجزء المبتدئة في ضوء حلقات الجزء الأول، في تشرين الأول ٢٠٠٦، وأوائل الجزء الثاني، في أيلول وتشرين الأول ٢٠٠٧. فكتب هوشنك أوسي («الحياة»، ٢٧ أيلول ٢٠٠٧ يصل «باب الحارة» الثاني بالأول: فالأول كان ابتداؤه مقتل حارس باب الحارة، أبو سمعو، جزاء تحريه عن سارق بيت أبو ابراهيم، وبلوغ تقصيه غايته. وكان مقتل أبو سمير الصالحاني خاتمة الجزء. فمجرى هذا بين قتلين أو موتين. وتتردد في الجزء الثاني أصداء مقتل أبو سمير الصالحاني. ويختمه مقتل زعيم الحارة. وغداة أسبوع على ملاحظة أوسي، يكتب ايلي عيدو (الصحيفة نفسها)، في ٣ تشرين الأول ٢٠٠٧ ملاحظاً على «المجتمع» الذي يصوره «باب الحارة» في جزءيه، وتقوم منه حوادث القتل مقام العلامات أو المنعطفات الزمنية والدرامية الفارقة.

فهو مجتمع يحكمه «الزعيم»، ويعاونه على حكمه وجهاء الحارة وتجارها وشيخها. وتستجيب العامة، «الناس»، حكم «الثالوث» وسطوته وسيطرته، فتقدم فروض الطاعة والخضوع. والسطوة والطاعة هاتان لا تقتصران على الحارة، أو على جمعها ومجتمعها «الخارجيين» والقائمين بنفسهما. فركن السطوة والطاعة «الأول»، إذا جاز في هذا المعرض ترتيب زمني (غير جائز على ما أزعم)، هو مراتب الأسرة الداخلية. فيها بالأبناء، وهم آباء أسر وأزواج، الوالد، وينصاعون لرأيه وأمره من غير تردد ولا مناقشة. والرجال، الذكور، آباء وأبناء وأولاداً، يعلون النساء، الإناث، جدات وأمهات وحفيدات، رتبة ودالة وكينونة.

والذكور هم عمدة الحوادث، والمبادرون الى الفعل. والفعل هو المنافحة عن الحارة، أرضاً أو ديرة (أي حارة و «حدوداً») وأهلاً. والأهل هم الرجال. والرجال هم «كرامتهم». و «كرامة» رجال الحارة هي امتناع «أرض» الحارة، ما أقاموا بها، من دخول الأجنبي الغريب وانتهاكه ودوسه وعدوانه. وهي منعة النساء من رؤيتهن، والنظر إليهن، وإخراجهن من عصمة أزواجهن، واختلاطهن، وتزويجهن الأجانب في نهاية الأمر ووقوع الطامة. وتلخص أحكام السلطان والحكم والإدارة السياسية المسألة بقول موجز وجامع. فتشترط في ولي الأمر «الذب عن الحياض (جمع مجتمع الماء و «شيء» آخر) وصون البيضة (الفرادة والسلاح والأصل والوسط والساحة والجماعة والمجتمع والمستقر والحوزة).

الصدق والحقيقة والأصالة

وفي الحارة، على قول إيلي عبدو كذلك، يسابق الناس بعضهم بعضاً على مد يد العون، وتشد بينهم أواصر الإلفة والمحبة والأخوة (= الأخوة والتنسيق والتعاون؟). فهم واحد، أو يد واحدة، على العدو، والعدو «خارجي» على الدوام. ويعلل الكاتب رواج المسلسل المتلفز وولادة جزء رمضاني ثاني من الأول، بثبات «الجوهر» الاجتماعي والتاريخي المروي، والمعروض على الأعين والأفهام، على مر الزمن، واقتصار ما مضى وطوي على «الشكل». فيذهب الى ان «الحارة» لم تبق الحارة، بأعيانها المرئية والملموسة والمسموعة، أي بلباس أهلها وبيوتهم وأعمالهم وأسلحتهم ومركباتهم، أو باب حارتهم، على ما لاحظت سمر يزبك من بعد («الحياة»، ١١ كانون الثاني ٢٠٠٨). فالاحتلال الفرنسي، يومها «انتزع» الأبواب، وهي عنوان الحارات وآيات كياناتها المنفصلة والمستقلة، وفتح بين الحارات على غير وجه الفتح «بيننا وبين قومنا بالحق» (التنزيل). وهو (الاحتلال) أراد تثبيت الجماعات في أجسام سياسية منفصلة، على ما روى مسلسل سوري آخر، «أسمهان»، على نحو تفصيلي.

ويعقب أحمد مغربي («الحياة»، ١٨ تشرين الأول ٢٠٠٧) على رواج المسلسل، فينكر عليه، وعلى جمهوره، الميل الى «قيم نمطية أحادية»، والى «انسجام» ينفي الصراع الاجتماعي. ويعمى الانسجامُ والأحادية والإفراط في تصوير الماضي في صورة زاهية، تعمى هذه مجتمعة عن ملاحظة دبيب المعاصرة والحداثة في أحشاء المدينة. ففي ذروة صراع «الأبوات» الوطني أو القومي، على قول بعثي سوري، أي الأهلي والعصبي، كان «المجتمع» السوري (على معنى «الحياض») يستقبل من غير تألف ولا رضا الخلاف بين التقليد والتجديد في حلة قاطعة وغير معهودة. وكان يستقبل، على رغمه ومضطراً، آلات النقل السريعة والجماهيرية، من الترام الى السكة الحديد، وآلات الإضاءة، وأجهزة توزيع الماء على الأراضي والمنازل، وآلات الطباعة، والسلع المصنعة والرخيصة، وتدوين ملك الأرض، والانتداب الى مجلس إدارة الولاية وبلديتها.

ويعود معظم هذه الى عقود قبل ١٩١٩ العتيد لا تقل عن ثمانية عقود. وتغفل وقائع المسلسل المروية، وحوادثه وصوره، عن الحوادث والوقائع هذه. فلا يقع أحمد مغربي على أثر لمدارس أو تدريس في مشاهد المسلسل الطويل وصوره. ولا يرى بنتاً من بنات «التكنولوجيا» (وفي لغة العصر كان يقال: «بنات الحديد»)، أو فكرة من أفكار «الحداثة الفكرية». وأما النزاع «السياسي» فهو شقاق أهلي لا يقر بصفته أو سعته، ويقتصر على مروق خائن واحد، «من لا مكان ولا ناس» على قول الكاتب، وعلى «غوايته»، بحسب بيت شعر قديم يستشهده عباس النوري، أحد أبطال المسلسل البارزين والسابقين، ويرفعه علماً على «المشهد الثقافي العربي» المعاصر (في كلامه الى ابراهيم حاج عبدي، «الحياة»، ٢ كانون الثاني ٢٠٠٨). ويرد مغربي، ضمناً، على مقالة المروق والخيانة، أي على من يزعمون ان الخلاف على «المقاومة» هو خيانة وحسب، بمقالة «السيد» حسن نصر الله، وإقراره بأن «لا إجماع على المقاومة». فإذا كان «السيد» يقول هذا، فما بال المسلسل لا يقر ولا يعترف؟ ولماذا يغفل عن الحال؟ يقول الكاتب في سره معجباً ومنكراً...

ولا تتأخر الردود على التشكيك في أمانة «باب الحارة» للوقائع، فتواترت سريعاً. والأرجح ان التشكيك هذا لم يقتصر على «المثقفين»، على ما يسميهم أصحاب الردود، وعلى بعض الصحافيين والكتاب، فطاول مشاهدين وأجزاء من جمهورهم العريض. وعَرْضُ الجمهور، أو عدده الغفير، ليس نافلة من النوافل، ولا تفصيلاً زائداً وثانوياً. فالعدد العظيم أو الكبير حجة من حجج «أصحاب» المسلسل، أي صنّاعه، من المؤلف والمنتجين والمخرج والفنيين والممثلين والموزعين الى «آخر» متفرج سناً إن لم يكن حالاً. وهو قرينة على «صدق» المسلسل و «حقيقته» و «أصالته»، بحسب عبارة المخرج بسام الملا الى ابراهيم حاج عبدي، فإذا تناول التشكيك، على ما مر للتو، قصور الرواية والمشاهد عن نقل وقائع بارزة وفارقة، أو يخالها المشككون بارزة وفارقة، وتدوينها، وعن ترديد صداها واقتفائه، رد اهل المسلسل وأنصاره واحتجوا له بـ «جماهيريته».

فإذا أقبل الناس على الرواية والصور و «الأبطال» إقبالهم المشهود. وهذا الإقبال قال فيه عزمي بشارة (المناضل العروبي الفلسطيني، وصديق حافظ الأسد وحسن نصر الله و «الجزيرة» معاً، وطريد اسرائيل): «باب الحارة استطاع ان يكهرب المشاهد من المحيط الى الخليج» (نقلاً عن عباس النوري نفسه). فإقبالهم آية وجدانهم العميق، ومرآة ما يقبلون عليه، أي المسلسل. وهذا دور يدور. فالناس، أو جمهورهم، هم مستودع الصدق والحقيقة والأصالة. وهذا ما «يقوله» المسلسل، وما يفترض في المثقفين والكتّاب و «الفرد» على قول منار ديب («الأخبار»، ١٣ ايلول ٢٠٠٨)، الإقرار والصدوع به. فشأن من «يخرج» على المسلسل هو شأن من يخرج على الناس، ومنهم، وهم ما هم: فيشبه الخارج أو الناقد أو الفرد، وهو لم يكن ولد يومها ولم يولد بعد، على القول المتقدم نفسه، «خائن» المسلسل المولود من عدم ذكرٍ وأنثى معاً.

فيحمل أدهم أسامة سكيك («الحياة»، ٢٢ تشرين الأول ٢٠٠٧) رواج المسلسل، في دوره الثاني بعد دوره الأول، على تصويره واستحضاره، ملء العين والأذن والفهم، «ما نفتقد إليه من نبل وشهامة في زمن عزا فيه». فعلى هذا، ليست رواية الحلقات الرمضانية الحولية (السنوية)، وصورها ومقالاتها أو حواراتها، مرآة وقائع وأحوال وحوادث راهنة أو ماضية ومنصرمة، ولا هي مرآة معانيها. وليس المتفرج عيناً، أو بصراً وفهماً يعقلان ويعللان ويؤلفان، ويترجحان بين الماضي وبين الحاضر. فيؤولان الواحد في ضوء الآخر، ويريان رأيهما وربما آراءهما الكثيرة في ثمرات هذه (العقل والتعليل والتأليف...). فالرواية والعين معاً تصدران عن «شهوات» سوية هي من طبائع النفس وجبلتها. فالحلقات التراثية والرمضانية السورية أو الدمشقية تمثّل على طاعة الأبناء الآباء «على ما يشتهي الآباء اليوم»، على ما يكتب أدهم أسامة سكيكي. ويخاف الآباء على أبنائهم، ويحرصون عليهم وعلى عفتهم، «على ما يشتهي الأبناء». وتلم الأم الأسرة «على ما تشتهي الأسرة». و «الإناث» عفيفات «على ما يشتهي الشباب»، أي الذكور على الأرجح.

وتتضافر «الشهوات» هذه. وينبغي حمل اللفظة على معناها في طبيعيات أرسطو: يشتهي الجسم مستقره حين يُرمى ويسقط بموضع. على استواء الكون الاجتماعي نظاماً، أو على نظام. والنظام وهيئته، وبديع نظمه، دليل الخلق والحكمة، وآية الخالق الحكيم. وهي، النظام والهيئة والنظم، ميزان الصدق والحقيقة والأصالة. وليس ميزانَها، على خلاف زعم بعض الكتّاب والمثقفين والأفراد، «كُتّاب» (صف الدرس البائد على شيخ يستحسن أعمى وطويل العصا) من هنا، وجريدة، «جورنال» على ما يحب «الأستاذ» الجورنالجي محمد حسنين هيكل القول، من هناك، ولمبة وموتور من هنالك. فإقبال الجمهور على الحارة وأهلها يجهر فقداً ونعياً وطعناً. وهذه، بدورها، تحيي قران أو وحدة ما تفرق وتشعث: فتبعث الرجولة في «ذكور من غير رجولة»، وتنفخ العدل والشجاعة والإقدام في حكام عروا منها (وهذا ما لا يجهره الكاتب، فيقول موارباً بعض الشيء: أبو شهاب حاكم عادل وشجاع ومقدام)، وأبو العز «يرفض ان تداس كرامته ويغار على عرضه وأهله».

النكوص والإحياء

وعلى هذا، يقترح المسلسل، شأن المنامات وأحلام اليقظة والأهومة، ما يسميه بعضهم نكوصاً أو ارتكاساً الى عالم اجتماعي وتاريخي، طفلي رحمي وسحري. فـ «تحقق» روايته، أي أخباره وقصصه، في صور تترجح بين النوم واليقظة، وفي ضوء يتوسط عتمة الليل والضوء المخنوق، «تحقق» العوم في نُوام يجمع الإدراك الى الغيبوبة. فيدعو الجمهور، وكتلته الذائبة والرخوة، الى التلاشي الداخلي، والاقتصار على مشاعر وأحاسيس وأفكار تتناولها النفس المنطوية على نفسها وطويتها من غير الخروج منهما. وقد تكون المشاعر والأحاسيس والأفكار هذه من صنف تخلفه «الحمامات» المتفرقة في السينما («حمام الملاطيلي» و «السقامات») والتلفزيون («حمام القيشاني») والعوامات القصصية («ثرثرة فوق النيل»). ولكن الإقرار بالنكوص أو الارتكاس في شأن تاريخي واجتماعي عام ومعياري، وفي «مجتمع» (جماعات أهلية) لا يرضى بهوية لا ينتزعها من عدو وجودي وكياني استئصالي، متعذر بل ممتنع ومحال.

فيُقلب الارتكاس إحياء وبعثاً وتجديداً، على منطق المنامات والرؤى المراوغ. ولا ريب في صدق ملاحظة سمر يزبك («الحياة»، ١١ كانون الثاني «(٢٠٠٨ اكتفاءَ الحارة بنفسها عن السلطة»، وتمتعها بـ «أمان الجزيرة»، حيث السيد والسجان واحد، وعودة عصر الحريم. ولكن صدق الملاحظة «التام» يفترض اقتصار المسلسل على الارتكاس، وقبوله وجمهوره حمل الماضي على الماضي، وفصل الحاضر والآتي منه. والحق ان «باب الحارة»، والأدب التلفزيوني «التراثي» والحديث جملة، يكذب الحمل والفصل هذين. فلا تحصى المقالات والمراسلات التي تحتفل بـ «القرية الشامية»، وهي مجمع المجسمات التي يصور المنتجون والمخرجون السوريون مسلسلاتهم «التراثية» و «التاريخية» فيه (في المجمع). فينوه وزير السياحة السوري بالمهن التقليدية، وقلعة صلاح الدين، والمسرح الروماني، وقصر العظم، وتجسيدها «الحي والواقعي» «لأنماط الحياة الشامية من عشرينات القرن الماضي»، على ما ينقل نور الدين الأعثر عن الوزير («الحياة»، ١٨ آب ٢٠٠٨). ويجمع الموظف الرسمي السياح وأهل البلد في باب واحد، وغرض واحد هو «تعريفهم بالتراث الشعبي الدمشقي». والتقاء السائح وابن البلد على تناول «التراث الحي» على معنى مشترك قرينة على عموم المعنى، ودمجه بين دفتيه أصالة البلد ومعاصرة الغربي. (وتواردُ هذا مع «برنامج» محمد عابد الجابري تحقيق «المعاصرتين»، ومع استظهار قصاصين وشعراء عرب بنقل بعض قصصهم وأعمالهم الى لغات أوروبية واحتجاجهم به على مرتبتها، هذا التوارد غير خفي).

فيعزو مخرج «الباب» المثلث، بسام الملا، ما يسميه متواضعاً «الاهتمام» الذي يبديه الجمهور، وهو يقول «المزاج الشعبي» مترفعاً، بمسلسلات مسلسله، الى «ملامسته قضايا سياسية واجتماعية لها علاقة بتوقيت العرض» (في ٢٠٠٦ و٢٠٠٧) وبـ «المزاج الشعبي» العتيد. ويلمح المخرج السوري من غير تورط الى ما يسميه «خبير» ومحلل سياسي سوري آخر، وسفير مرتقب (الى لبنان!) «المقاومات» العربية (والإسلامية، ولكن هذه يحسن السكوت عنها في كلام الجهر) التي تساندها دمشق الأسدية حين لا تنشئها أو تصنعها وتنفخ فيها حياة مريضة ومميتة. ويخرج المخرج من مغمغته الظرفية والسياسية الى التصريح حين يتناول («يلامس»؟) الأعماق القيمية، فيقول بالفم الملآن: «العمل تجسيد لقيم بيئة أصيلة ونبيلة لامست وجدان (الشعب أو مزاجه) ببساطة وصدق».

وعلى هذا، يقص الملاّ المخرج على مسمعه، على نفسه، وعلى مسمع الجمهور، حكاية لا رد ولا راد عليها، شأن حكايات أو فتاوى المجتهدين العلماء في بعض الملل والنِّحل، لأنه لا يرد «على الله»، والحكايات من «فيضه» وإلهامه. وتفترض المناقشة، وهي السبيل الى الرد، اختباراً أو تحقيقاً، على معنى الحمل على حقيقة الوقائع وصدقها. ويحتمل كلا الاختبار والتحقيق التكذيب. ويشترطان الاحتكام إلى خارج يقاس عليه. والحكاية الملاّوية لا خارج لها، ولا تقاس على غير، ولا يمتحنها غير. فهي تصدر عن أصالة ونبل ووجدان. وغير هذه أو خلافها وأضدادها هي دخالة (على الضد من أصالة) وخساسة وكذب أو افتعال واصطناع. والحق ان لا ضد لوجدان. فالوجدان جوهر وليس صفة، و «ضده»، وليس نقيضه، جوهر آخر. وحمل الجوهر الآخر على نقيض وليس على ضد هو باب على حرب وجودية لا نهاية لها، على شاكلة تلك التي يراها أحمدي نجاد في مناماته ويقظته، ويراها معه شركاؤه في مناماته. وتتوجه الحكاية هذه على نظيرها وقرينها وشبيهها، أي على (جمهور) أصيل ونبيل ووجداني، مثلها ومثل مصدرها. وقد لا يكون ثمة مسوغ لصدورها، أي خروجها من نفسها، و «فيضها» صوراً وأقوالاً وحوادث. والمسألة هذه، مسوغ الصدور، عويصة اعتياص تسويغ الخلق نفسه على ما تنبّه السهروردي والإشراقيون عموماً.

الأمة جمهوراً تلفزيونياً

ومهما كان من أمر علل الخلق والإخراج والحكاية، فـ «العمل»، على قول بسام الملا متواضعاً، صدر حقاً عن وجدان اصيل ونبيل. والأعظم انه صدر عما لا مناقشة فيه وهو قيم الوجدان هذا. وهذه، القيم، لا خيرة فيها. فإما صدوع وامتثال وإما إنكار وشقاق، أي انحياز الى «وجدان» آخر. والوجدان والجماعة (الأمة) واحد. و «الوجدان الآخر» خلف في القول. ولا معنى له إلا السعي في محو الوجدان السوي والواحد، وقتله وموته، على ما ذهب إليه الأمير شكيب ارسلان في ثلاثينات القرن الماضي، وعلى ما لا ينفك يقول، صبيحة كل يوم أو ظهره، «المرجع» محمد حسين فضل الله من حارة (ما هذه المصادفة؟) حريك، بين ضاحيتي الغبيرة وبرج البراجنة. وما صدر عن وجدان أصيل ونبيل، هو وجدان الأمة. وهذه صارت جمهوراً تلفزيونياً ومصلياً على معنى لا يفترق كثيراً. تجزيه الأمة المتلفزة خيراً وإقبالاً وفرجة وتقليداً.

فالمسلسل أو «العمل» ليس وسيطاً بين الأمة المتلفزة وبين وجدان الأمة، وقيمها الثابتة والعميقة، إلا ظاهراً وشكلاً وعَرَضاً. فهو وجدان الأمة متلفزاً. وهذا على شاكلة الاضطرار الى سلك العلماء الفقهاء في البلاغ عن رسالة هي مرآة الفطرة، أو الاحتياج الى الحزب و «اللادولة» في حكم الأمة نفسَها، او حكم الشعب نفسَه، وعلى شاكلة التوسل بمجلس الشعب والانتخابات الى تثبيت الحزب القائد في قيادة الشعب العميق بالمجتمع .

الأهرام

الضرر في سوء الاستخدام

البابا شنودة الثالث

هناك عطايا كثيرة وهبنا الله إياها، ويمكن أن نستخدمها في الخير. ولكننا إذا أسأنا استخدامها، تكون النتيجة ضررا لنا ولغيرنا. فالضرر إذن ليس فيها، إنما في سوء الاستخدام. فالمال مثلا يمكن ان يكون منه الخير أو الضرر، حسب استخدامه. يمكن استخدامه في الخير عن طريق العطف علي المحتاجين، والقيام بمشروعات نافعة للمجتمع. وفي الإصلاحات العامة، وفي تقوية اقتصاد البلاد، ومساندة الجمعيات الخيرية ومساعدة العجزة والأيتام والأرامل.. وما إلى ذلك، ولهذا نقرأ عن كثير من القديسين كانوا أغنياء، وجعلوا الفقراء شركاء في أموالهم.. ولكن سوء استخدام المال يصبح شرا، إذا ما استخدم المال في الاحتكار، والتلاعب بالبورصة والأسواق، وفي الملاذ الخاطئة، وفي شراء الذمم بالمال، أو الوصول الي السلطة عن طريق المال، وكذلك إن تم تقييم الناس بحسب أموالهم، كما قال أحد الشعراء:

إن قل مالي فلا خل يصاحبني
إن زاد مالي فكل الناس خلاني
فكم عدو لأجل المال صادقني
وكم صديق لفقد المال عاداني

وأيضا من الضرر محبة المال، ومحبة اكتنازه كما لو كان صنما، والاتكال الكلي على المال والاعتماد عليه في الوصول لأي غرض، أو أن يصير المال سببا في التعالي والكبرياء، وسببا في فرض السلطة، كل هذا بسبب سوء استخدامه..

نقطة أخرى وهي الحب:

لاشك أن الحب فضيلة كبرى إذا ما استخدم في محبة الله، ومحبة الخير، ومحبة الناس جميعا، ومحبة السماء والملائكة، ومحبة المثاليات.. وبهذا المفهوم يكون من الخطأ أننا لا نحب.. ولكن اسم الحب قد يساء استخدامه، إذا ما أطلق على الشهوة والجنس. وإذا ما صار حب فتي لفتاة سببا في ضياع عفتها، وضياع سمعتها ومستقبلها، وشغل عقلها بعواطف مؤقتة تؤدي الى عدم نجاحها في حياتها..

وأيضا يصبح الحب ضررا، إذا ما استخدم في الأنانية، وأحب الانسان ذاته محبة خاطئة تقوده إلى الإضرار بمن يعتبره منافسا له في المركز، أو في المال، أو في الظهور، أو في محبة امرأة، هنا تكون محبة الذات هي الخطأ، ويكون إنكار الذات هو الفضيلة.. كذلك هناك نوع من الحب يسبب ضررا، إذا ما أحب شخص المادة وأصبحت هي كل ما يشغله وما يسعى اليه، وبهذا يخلو قلبه من محبة الله والناس.. الفن أيضا يمكن استخدامه في الخير أو في الشر ونقصد بالفن فروعه في الموسيقى والغناء والشعر والرسم والنحت والتمثيل في المسرح أو السينما وسائر الفنون الأخرى، ولاشك ان الفن موهبة.

لقد كان داود النبي شاعرا وموسيقيا، كان ينظم كثيرا من مزاميره شعرا، ويغنيها على المزمار، كما كان يحسن الضرب علي العود والقيثار وعلي الأوتار العشرة، وكان ميشيل انجلو رساما اشتهر بأيقوناته الرائعة..وما أعظم النحاتين الذين صارت تماثيلهم تعرض في أرقي الميادين تعيد الي الناس ذكريات أعظم الرجال.. وكان بيتهوفن وباخ من أعظم الموسيقيين تأثيرا في المشاعر، كما كان شكسبير من أشهر الشعراء ومؤلفي التمثيليات.

ويعوزني الوقت إن تحدثت عن التمثيليات النافعة التي تحكي قصصا من أحداث التاريخ النافعة، وذكريات الشهداء والأبطال..

ولكن الفن. للأسف الشديد. قد يستخدمه البعض في الإثارة الجنسية، مثل الصور العارية والأغاني الماجنة، والتمثيليات التي تقود الى مشاعر خاطئة، والشعر الذي يستخدم في الهجاء والغزل والخمر، كل ذلك لايعيب الفن، إنما العيب هو في الاستخدام الخاطئ.

** ننتقل الى الكلام عن العقل:

فالعقل موهبة عظيمة من الله للانسان، ميزه عن سائر المخلوقات الحية التي على الأرض، وجعل من عناصر العقل: الفهم والاستنتاج والبديهة والذاكرة والذكاء، وبالعقل السليم يمكن ان يكون الانسان ناجحا، وحكيما في تصرفاته، ونافعا للمجتمع الذي يعيش فيه، ومنتجا.

غير ان العقل يمكن ان يساء استخدامه، ويصبح اداة في أيدي الأشرار والمجرمين، يدبرون به المؤامرات، ويحيكون به الحيل الخبيثة والدجل والشعوذة، والمعروف ان وراء كل جريمة عقلا يدبرها، ويحاول ان يخفي معالمها، كما ان العقل قد يدخل في الأمور الاقتصادية فيقلب موازينها كما يدخل أيضا في الحروب فيساعد على اهلاك الملايين.

وأكبر مثل لاستخدام العقل في الشر: الشيطان، فهو بحيله وأفكاره أهلك الملايين في طرق الرذيلة التي يوحي بها.. في مجال العقل، نتحدث أيضا عن نقطتين وهما الخيال وبعض المخترعات وكلاهما من نتاج العقل.

× فالخيال موهبة، يمكن ان يستخدم في الخير، ويساعد في نظم الشعر، وتأليف القصص والروايات النافعة، كما يساعد علي التأمل، ويسرح به العقل في السماء والملائكة والأبدية.. غير أن الخيال يمكن أن يستخدم أيضا في الشر كما يتخيل البعض قصصا ينتقمون بها لأنفسهم، أو يرتكبون بها شهوات يريدونها، أو يدخلون بها في أحلام اليقظة، ونلاحظ ان كثيرا من المجانين شطح بهم الخيال فتخيلوا انفسهم ما ليس لهم! كذلك المخترعات هي بركة من العقل للبشرية، ولكنها يمكن ان تستخدم في الخير، فالذرة والمفاعلات النووية يمكن استخدامها في أمور سلمية نافعة ويمكن بسوء استخدامها في الحروب تؤدي الى التدمير الخطير كما حدث مع هيروشيما..اذن هي ليست شرا في ذاتها، إنما في سوء استخدامها. ونفس الوضع نقوله عن العديد من انتاج التكنولوجيا الحديثة..

×× الغريزة أيضا ليست شراً في ذاتها، وإلا ما كان الله قد خلقها فينا، وذلك إذا استخدمت في مجالها الطبيعي.

فالغريزة الجنسية لازمة لبقاء الجنس البشري عن طريق الزواج، أما إذا استخدمت في الزنا والنجاسة فحينئذ تصير شرا، ليس في ذاتها، إنما بسوء استخدامها.

وكذلك الغضب يعتبر خيرا، إن انتج الشجاعة والنخوة والشهامة والدفاع عن الحق وإن كان بطرق سليمة، اما اذا ما أسيء استخدامه فانه يتحول الى شر منفر.

× أخيراً يمكن تطبيق هذا المنهج في أمور كثيرة.

الاتحاد

مَنْ أقوى النساء في العالم؟

«مهندسة عراقية ذات مزاج بركاني فازت على أبرز المعماريين العالميين». كان ذلك عنوان أول تقرير في الصحافة العربية عن «زهاء حديد». نُشر التقرير الذي كتبته أنا في ٢٥ سبتمبر/ ايلول عام ١٩٩٤ على الصفحة الأولى لصحيفة «الحياة» اللندنية، وتابعتُ في تقارير لاحقة رفض مجلس بلدية مدينة «كارديف» البريطانية تنفيذ التصميم الفائز ببناء دار الأوبرا. وبعد ذلك بسنتين تابعتُ رفض مشروع «الجسر السكني» في مدينة لندن، والذي فازت به المعمارية العراقية على ٢٩٦ مهندساً. ولقي المشروعان مصير مشاريع عدة فازت بها على أبرز المعماريين العالميين، لكنها لم تُنفذ، وأولها تصميم بناية «الذروة» في قمة الجبال المحيطة بمدينة هونج كونج بالصين عام ١٩٨٢. ومع مطلع القرن الحالي فازت زهاء حديد بتصميم وتنفيذ سلسلة مشاريع هندسية كبيرة؛ منها «متحف الفن الحديث» في سنسناتي في الولايات المتحدة الأميركية، و«متحف الفن الحديث» في روما. وسجّل فوزها عام ٢٠٠١ ببناء جسر أبوظبي في الإمارات العربية المتحدة سابقة تاريخية، ليس فقط باعتباره أول جسر تبنيه امرأة، بل أول جسر يصممه ويبنيه مهندس معماري.

وفي القرن الماضي كان يبدو من المستحيل أن تسلَّم مهنة العمارة «الذكورية» لامرأة، خصوصاً عربية ومسلمة. وها هي اليوم المرأة الوحيدة التي ارتقت السلالم العليا في الهندسة المعمارية. وبعد أن تجاوز المئة وخمسين عدد أعمالها المعمارية المنفذة في مختلف بلدان العالم، اختيرت أخيراً ضمن قائمة «أقوى ١٠٠ امرأة في العالم» التي تضعها سنوياً مجلة الأعمال الأميركية «فوربس».

احتلت «زهاء حديد» المرتبة الـ٦٨ في القائمة، وجاء ترتيبها الأولى بين نساء العرب اللواتي ضمتهم القائمة، وبينهن مها الغنيم، مديرة شركة «الغنيم للاستثمارات» الكويتية (٧٢)، وحرم أمير دولة قطر الشيخة موزة بنت ناصر (٧٩)، وحرم عاهل الأردن الملكة رانيا (٨٢)، والشيخة لبنى القاسمي وزيرة الاقتصاد في دولة الإمارات (٩٩).

وتكشف مراجعة الأسماء المختارة، أن «القوة» في مفهوم «فوربس» مرادفة للسلطة، وبالتحديد سلطة المال والسياسة. فنساء الأعمال نلن ٤٨ مقعداً، ونساء السياسة ٢٩ مقعداً. ومع أن القائمة تعكس صعود نساء قارة آسيا، حيث بلغ عددهن أربعة بين الستة الأوائل، إلاّ أن العولمة، وهي في حقيقتها «الأمركة»، تغلب على معايير الاختيار. فعدد الأميركيات في القائمة ٥٣ امرأة. ولعل هذا سبب استبعاد نساء العلم والثقافة، كعالمة الطب اللبنانية هدى زغبي، مكتشفة جينات مسؤولة عن أمراض الانحلال العصبي التي تصيب المتقدمين في السن بفقدان التوازن (الرَنَح) وخرف الشيخوخة (الزهايمر) والرعاش (باركنسن)، واستبعاد عالمة الطب والكاتبة الإماراتية رفيعة غباش، رئيسة «جامعة الخليج العربي» و«شبكة المرأة العربية للعلوم والتكنولوجيا»، واستبعاد أشهر روائية في العالم التشيلية إيزابيل إليندي التي تُرجمت رواياتها إلى جميع اللغات.

إذا صحّ اعتقادي بأن نصف مليار امرأة عربية ومسلمة، تنبض قلوبهن بنبض نساء عراق اليوم، فالويل لعالَم جاهل وبليد وغاف..

ولست أفهم لماذا حافظت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل على المرتبة الأولى للسنة الثانية على التوالي، مع أن شعبيتها داخل بلادها تدهورت من ٨٠ في المئة مطلع هذا العام إلى ٥٦ في المئة حالياً؟ ولماذا تحتل وزيرة الخارجية الأميركية كوندوليزا رايس المرتبة الرابعة، وقد سجلت فترة توليها أعلى المسؤوليات الدبلوماسية أسوأ تدهور في مركز وسمعة واشنطن الدولية؟ ومن هي في ميزان القوة نظيرتها الإسرائيلية تسيبي ليفني (٣٩)، أو لورا بوش حرم الرئيس الأميركي جورج بوش (٦٠)؟ وما قيمة القوة السياسية التي تزول مع دورة «لعبة كراسي الحكم»، كما حدث مع وزيرة الخارجية البريطانية السابقة مارجريت بيكيت؟ اختفت بيكيت من القائمة حال إعفائها من منصبها في التغيير الوزاري الأخير، وكانت تحتل المرتبة الـ٢٩ في العام الماضي. ولقيت المصير نفسه شيري بلير التي أسقطت من القائمة مع سقوط زوجها رئيس الوزراء السابق توني بلير، وكانت تحتل المرتبة الـ٦٢.

وكم يليق بمن لم تدرج أسماؤهن ضمن قائمة «أقوى النساء» قول كاتب بريطاني ساخر: «قُطّاع الطرق يخيرونك بين محفظة نقودك، أو حياتك، والنساء يُردن الاثنتين»! فمديرة شركة «برازيل تيليكوم» كارلا تشيكو حُذفت من القائمة، بعد محاكمتها في العام الماضي، بتهمة الاحتيال والتجسس على منافسيها التجاريين. كما حُذفت ليندا واتشنر، رئيسة شركة «وارناكو» التي تحقق في ظروف إفلاسها «هيئة الأمن والتبادل» الأميركية. وحُكم بالسجن على مارثا ستيوارت رئيسة شركة «ليفينغ أومنيميديا» بجريمة المتاجرة الداخلية بالأسهم. ولم تخرج نجوم القوة النسائية المتساقطة صفر اليدين، بل حصل معظمهن على تعويضات بملايين الدولارات، وعقود لكتابة مذكراتهن، أو المشاركة في برامج التلفزيون!